سموم تصدرها المطابع إلى العالم الإسلامي[1]

تفضل الأخ الكريم نور الدين علي الصومالي بزيارتي في منزلي - وهو قاضٍ شرعي بالصومال، وعضو بعثة الصومال إلىٰ الأزهر- وقال الأخ: لقد كتبتم عن كثير من الأصنام التي تعبد من دون الله، وما تفضلتم بالكتابة عن «عبد القادر الجيلاني» الذي يعبده الكثير من دون الله في الصومال؛ ولهذا جئت أرجوك في الكتابة عنه، لعل المسلمين في الصومال العزيز ينيبون إلىٰ الله وحده، ويتوبون مما زينه لهم شيطان الجن أو شيطان الإنس من الاستعمار.

ثم تفضل مشكورًا، فأعطاني كتابين أولهما موسوم باسم: «تفريح الخاطر في مناقب تاج الأولياء وبرهان الأصفياء الشيخ عبد القادر الجيلاني» ألفه بالفارسية الشيخ محمد صادق القادري، الشهابي السعدي وترجمه إلىٰ العربية الشيخ عبد القادر بن محيي الدين الأربلي القادري الطبعة الرابعة سنة ١٩٥٧م شركة مكتبة ومطبعة (.....) وهي مطبعة كبرىٰ في حي الأزهر من القاهرة.

أما الثاني فموسوم باسم: «الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية» وهو مطبوع في نفس المطبعة.

ولقد تصفحت الكتاب الأول. ورأيتني أكتب علىٰ غلافه تحذيرًا لولدي الصغير حين يكبر من هذا الكتاب: (لقد تمرست طويلًا بخرافات التصوف،

---

(١) (٣/ ١٣٦٥هـ).

وضلالات زندقته وعماية جهالته، فيما خلف من تراث، ولكني لم أجد كتابًا من بين كتب التصوف يساوق هذا الكتاب في ضلالته وخرافاته) وفي صفحة أخرىٰ وجدتني أخط علىٰ الكتاب: (كتاب كله خرافات ملعونة).

وإليك بعض ما في الكتاب:

(كل ولي علىٰ قدم نبي. إذا سمعت من الصوفية ضلالًا يخالف الشريعة، فتوقف فيما سمعت، ولا تحكم بضلاله، واعلم أن لأرواح الكمل تصرفات ثلاثة:

أولًا: التجسد والتمثيل بالصور كما تجسد روح علي بن أبي طالب لاستخلاص سلمان الفارسي من السبع.

ثانيًا: التصرف في الأجساد الإنسانية لتكون روحانية نورانية.

ثالثًا: التصرف في الأشياء؛ وللأرواح فيوض، بها ترىٰ في عالم الظاهر بالمشافهة والمواجهة أو من غير رؤية.

ثم يزعم الكتاب أن الجيلاني رأىٰ الرسول ليلة المعراج، وشرف بتشريف الولاية المطلقة المحمدية، ثم يزعم أن الرسول بلغ سدرة المنتهىٰ، فتوقف جبريل، وتحير الرسول إلىٰ أين يذهب. ولكنه ما لبث أن شعر بكتف يحمله، فنظر الرسول، فرأىٰ الجيلاني هو الذي يحمله علىٰ كتفه إلىٰ الله!!

فقال له الرسول: طوبىٰ لمن رآك، أو رأىٰ من رآك، أو رأىٰ من رأىٰ من رآك إلىٰ سبعة وعشرين، وجعلتك وزيري في الدنيا والآخرة، ووضعت قدمي هذه علىٰ رقبتك وقدماك علىٰ رقاب جميع الأولياء بلا تفاخر!!

وتروىٰ هذه الأسطورة بطريقة أخرىٰ في الكتاب لما ارتقىٰ الرسول السبع الطباق ليلة المعراج رأىٰ العرش عظيمًا رفيعًا، وسمع صوتًا من عالم القدس: ارق

علىٰ العرش. وخطر في قلبه كيف أرقىٰ عليه بهذه العظمة والرفعة، فحضر في تلك الحالة شاب حسن، وجهه نوراني؛ وأدىٰ التحية اللائقة لحضرته، فبلسان الباطن التمس أن يضع قدمه المباركة علىٰ رقبته، فوضع النبي قدمه علىٰ رقبته، فقام ونما حتىٰ استوىٰ إلىٰ العرش، فتوجه إلىٰ الشاب، وسأل عن اسمه، فخطر في قلبه أن لهذا الشاب رتبة بلا نهاية، ومقامًا ليس كمقامات الولاية؛ فسمع النبي هاتفًا من الله: يا حبيبي، هذا من ولدك وقرة عينك واسمه عبد القادر!! فقال له الرسول: يا نور عيني ويا ضياء أهل بيتي تكون قدماك علىٰ رقاب جميع الأولياء، فمن قبل قدمك، فله الدرجة العظمىٰ، ومن لم يقبلها حط عن رتبة الأولياء.

وجاء في الكتاب أيضًا: أن الجيلاني حل محل البراق، وأن موسىٰ ناقش الغزالي ليلة المعراج، فغلبه الغزالي، وأن الجيلاني صام في المهد، وأن من يذكر اسم الجيلاني بغير وضوء ينفصل رأسه عن جسده، أو يضيق عليه الرزق، وأن من نذر هدية إلىٰ الجيلاني وجب عليه الوفاء، وأن الجيلاني أحيا ميتًا قائلًا له: قم بإذني، فانشق القبر وقام الميت حيًّا مغنيًا، وأن من رأىٰ الجيلاني في يوم الجمعة صار وليًّا، وأن الجيلاني كان ينظر إلىٰ التراب فيصير ذهبًا، وأن الله قال له: جعلت أسماءك مثل أسمائي في الثواب والتأثير!!

ويصور لنا الكتاب صورة معركة بين ملك الموت وبين الجيلاني: فيزعم أن ملك الموت قبض روح خادم للجيلاني فجاءت زوجته تصرخ؛ فصعد الجيلاني علىٰ برج المراقبة، فرأىٰ ملك الموت يصعد إلىٰ السماء ومعه الأرواح المقبوضة. فقال يا ملك الموت، أعطني روح خادمي فلان، فرفض ملك الموت قائلًا:

إني أقبض الأرواح بأمر إلهي، وأؤديها إلىٰ باب عظمته.

واحتدم النقاش بين الملك وبين الجيلاني؛ وأخيرًا مد الجيلاني يده واختطف الزنبيل الذي به الأرواح المقبوضة؛ فتفرقت هذه الأرواح ورجعت إلىٰ أبدانها، فاشتكىٰ ملك الموت، فقال له الله: يا ملك الموت، إن الغوث الأعظم محبوبي ومطلوبي لم لا أعطيته روح خادمه؟ وقد راحت الأرواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد، فتندم ملك الموت.

هذه خرافات اخترتها من عدة صفحات قليلة من الكتاب، بقايا الكتاب مفعمة بمثل هذا النتن الإلحادي، ولقد علمت من الأخ الكريم نور الدين أن هذه الكتب وأمثالها من مؤلفات: «دحلان[1] والنبهاني[2]» كان يروجها الاستعمار التركي هناك.

وواضح أشد الوضوح أن مثل هذه الكتب لا تخدم إلا الاستعمار، فإنها تربط الناس بالأصنام التي يشيدها، وتفرغها من الخوف من الله، ومن حب الله، وتملأها بالخوف من الطواغيت أو الشيوخ وبالحب لهم؛ وإذا تجرد القلب من خوف الله وخشيته تجرد من الإيمان والعاطفة الشريفة.

---

(١) السيد أحمد بن زيني دحلان المولود بمكة سنة ١٢٣١هـ، المتوفىٰ بالمدينة سنة ١٣٠٤هـ. ألف كتابًا في الطعن في دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رد عليه العلماء، وناظره الشيخ بشير السهسواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكتب فيه كتابه الشهير: (صيانة الإنسان من وسوسة الشيخ دحلان). (ض).

(٢) هو يوسف بن إسماعيل النبهاني، صوفي غالٍ، ولد بفلسطين سنة (١٢٦٥هـ)، ثم رحل إلىٰ مصر وانتسب إلىٰ الأزهر، تولىٰ القضاء في عدة أقاليم. توفي سنة (١٣٥٠ هـ). له مؤلفات كثيرة أخطرها: (جامع كرامات الأولياء). [انظر «معجم المؤلفين» (١٣/ ٢٧٥)]. (ض).

لقد قلنا مرارًا، وكررنا ذلك: وهو أن التصوف يعيش دائمًا في خدمة المستعمرين.

وراقبوا كل بلد رزئ بالاستعمار وفتشوا ونقبوا في تراثه الديني، فإنكم لن تجدوا سوىٰ تصوف حفي بكل خرافة، وبكل أسطورة، وبكل ما يربط مصائر الناس بالأوثان.

ثم راقبوا هذا البلد بعد نجاته من الاستعمار، إنكم ستجدون ثورة؛ ثورة علىٰ كل بقايا الاستعمار وأوكاره، ولا سيما التصوف؛ وستجدون هذا ينزوي في ركن قصي يترقب اللحظة التي ينتقم فيها من الإسلام؛ وممن فضحوه؛ وفضحوا نواياه وصلته الآثمة بالاستعمار، وفي ترقبه هذا يتردىٰ برداء يزعم فيه أنه إصلاح وروحانية، وما هو إلا فساد وعماية مادية.

إن الصومال الوطن الإسلامي عزيز علينا نحن المسلمين، وحبنا لهذا البلد الكريم هو الذي يدفعنا إلىٰ أن ننبه إلىٰ أمثال هذه الكتب التي نصدرها نحن إليه؛ وإلىٰ أن نطالب بمنعها منعًا باتًّا حتىٰ لا نكون كالصديق الجاهل، أو كالدبة التي قتلت صاحبها.

كما يدفعنا حبنا للصومال، ولغيره من الأوطان الإسلامية إلىٰ أن نطالب بالإكثار من إرسال البعثات الدينية من رجال يفقهون الدين جيدًا، وعلىٰ بصيرة مما أنزل الله، ليبينوا لإخواننا هناك أن هذا الكتاب وأمثاله من الحجب الصم التي تحول بينهم وبين الإيمان القوي الصحيح أو بين النصر الكبير في المعركة الكبرىٰ ضد الاستعمار وخلفائه.

ماذا نقول ونحن الذين نصدر هذه السموم الفتاكة إلىٰ الصومال وغيره؟

إننا أمة مسلمة، ولديننا شرعته السامية ومثله العالية، وقيمه الخالدة، فلنحرص

- ونحن في نضالنا العظيم - علىٰ أن نبين هذه المثل والقيم كما بين الله، لا كما بينت القرون المظلمات، وأهواء الاستعمار، ونزوات الشيوخ.

لنحرص علىٰ أن نأمر الناس بأمر الله وننهاهم عما نهىٰ الله، في إخلاص وصدق وقوة دون مواربة ومداهنة؛ فالقليل من المؤمنين أنفع من أمم ضالة غوية.

أما إذا حرصنا علىٰ هوىٰ الناس، فكأنما نحرص علىٰ هوىٰ المستعمرين، فما نظن مسلمًا يكون له مثل هذا الهوىٰ، الذي يقدس مثل ما في ذلك الكتاب، إننا بدعوتنا هذه، إنما ندعو إلىٰ إقامة أمة مسلمة موحدة تدين بدين واحد، لتظل أبدًا في كفاحها وحدة قوية تنحسر دونها قوىٰ البغي والعدوان.

يقول بعض الناس: إننا بنضالنا ضد هذه الخرافات نفرق الجماعة!!

أية جماعة تقصدون؟ ولو كان الأمر كما تقولون، لما قام محمد ﷺ بواجبه، ولصدق اتهام المشركين له!!

بل لما قامت ثورة إصلاحية في مصر كان لها أثرها الجليل الرائع في جميع البلاد التي رزئت بالاستعمار.

لو حرصت الثورة علىٰ جماعة كهذه، ما أصلحت شيئًا، ولكنها حرصت علىٰ مبادئ وقيم وأهداف، وسواء رضي بعض الناس أم غضبوا، إذ لا يهم أبدًا في ميزان الحقيقة رضىٰ أحد من الناس وغضبه، إنما المهم دائمًا أن يكون الحق وحده رائدنا، ورضوان الله وحده مبتغانا.

وإننا بالحرص علىٰ جماعة بضلالها، إنما نحرص علىٰ أن نفقد عون القوة التي لا تهزم أبدًا ولها النصر أبدًا، قوة المدد من الله سبحانه.

إننا نحمل الراية، والمشعل، ونقود السارين في طريق النضال والحرية!!

وواجبنا يحتم علينا أن ندعو من يحيد ونهديه سواء السبيل، وأن نستنهض من يبغي القعود أو التخلف، وأن نسحق كل عقبة في الطريق، وأشد العقبات في طريق الإيمان وتحرر العقل، تراث الخرافة في التصوف، فلنعلنها حربًا لا هوادة فيها عليه.

لماذا؟ لنستحق نصر الله، وعون الله، ومدد الله، ولننقذ العقول من هذا السرطان الذي يفتك بها.